الرسالة

تصدرها
جمعية الدراسات القبطية
نيوجرزى - أمريكا

السنة السابعة عشر | العدد السابع: يوليو ١٩٩٨

صفحة مضيئة من تاريخ الرهبنة فى القرن العشرين

للأستاذ نجيب اسكندر يوسف

سانتا مونيكا - كاليفورنيا

كانت أجمل أيام حياتي عندما قضيت أربعة أسابيع في صيف سنة ١٩٦٧ في زيارة لنسّاك وادى الريان، وهو وادٍ قفر يقع في الصحراء المصرية الغربية على بُعد نحو ٢٠٠ كم جنوب غرب القاهرة. غادرنا القاهرة في منتصف الليل نحن: المهندس نبيل فوزى (وهو الآن الأب يعقوب المقاري)، والدكتور نصحي عبد الشهيد، والأب بول ميناس (وهو أسقف الروم الأرثوذكس بطنطا) ، وأنا؛ وذلك بعربة جيب قديمة كانت تزوِّد المتوحدين كل أسبوعين بطعامٍ طازج والاحتياجات الضرورية الأخرى.

سافرنا بالعربة الليل كله، وعند الفجر وصلنا إلى مدخل البرية النائية القاحلة. ثم انتظرنا حتى ضوء النهار لكى نتأكد أننا في الموقع الصحيح لنبدأ طريقنا نحو الجنوب. حينئذ استأنفنا الرحلة المحفوفة بالمخاطر ملاحظين باستمرار أن الشمس يجب أن تكون عن يسارنا.

وصلنا في العاشرة صباحاً إلى وادي الريان الذي يشكّل حرف U فاتحاً فمه نحو الشرق. وتوقفنا بالعربة المحمّلة تحت ظل شجرة برّية جنوب عين ماء شمال وادي الريان. وهناك مكثنا، نبيل فوزي وأنا، تحت الشجرة. بينما ذهب بقية المسافرين إلى المغارة الرئيسية التي كانت تُستعمل ككنيسة، وهي على بُعد سبعة كيلو مترات نحو الغرب، وذلك لكي يخبروا بوصولنا.

وفي غضون ساعتين رأينا من على بُعد بعض النسّاك بملابسهم السوداء يسوقون جحشاً وهم مقبلون نحونا. رحبوا بنا وساعدونى لكى أمتطى ظهر الجحش، فقد كان هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات التى يملكونها، حيث أن العربة الجيب لا يمكنها أن تعبر تلال الرملة الهائلة التي تغطي فم الوادي كله، ثم بدأ بقية النسّاك في تفريغ حمولة العربة وتوصيل المؤن التى أحضرناها إلى مكان سكناهم على عدة مراحل.

وإذ لم أكن معتاداً على ركوب الجحش ولاسيما في صعود وهبوط المنحدرات، تلك الحقيقة التى أدركها الجحش الماكر على الفور، فقد بدأ يهزّنى على الجانبين حتى اضطررت أن أترجَّل من على ظهره. وقد عبرنا منطقة التلال في نحو ساعة، ثم بدأ الطريق يكون أقل إرهاقاً

وبعد ساعة اخرى وصلنا إلى مكان المغائر الذي يمتد نحو ثلاثة كيلو مترات نحو الغرب. ولما وصلت إلى أول مغارة رحّب بى أبونا اسطفانوس ودعانى لكى أستريح في مغارته، وقدَّم لي طعام الغذاء بكرم وأعطانى فرصة لكي أنام قليلاً حيث أنني كنت في غاية التعب. وبعد الظهر استأنفت بقية الطريق على قدميّ إلى المغارة الرئيسية التي كانت تُستعمل ككنيسة حيث حيّاني بحرارة الأب المبجل متى المسكين الأب الروحي لنسّاك وادي الريان.

فى أواخر عام ١٩٦٠ اختار هؤلاء النسّاك ذلك الوادي القفر الصعب الوصول إليه لكى يمارسوا حريتهم في عبادة الله بدون أي عائق أو تدخل. وكان الوادي معزولاً تماماً عن العالم الخارجى حيث أنه لم يكن مسموحاً لأي زائر بالذهاب إلى هناك إلا بموافقة مسبقة. كما أنهم لم يحتفظوا بأي جهاز راديو لضمان الهدوء

والانعزال الكاملين.

معظم هؤلاء النساك مؤهلون جامعياً، وفضّلوا الحياة الرهبانية على الاستمرار في سلك حياتهم المهنية. وعلى سبيل المثال، فإن الأب المكرم متى المسكين هو خريج كلية الصيدلة من جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، ثم صار صاحب صيدلية عام ١٩٤٧، وقد زهد في ممتلكاته ومستقبله المهني عام ١٩٤٨ وسلك الحياة الرهبانية. وأبونا أليشع - كمثال آخر - خريج كلية التجارة من جامعة القاهرة، ثم صار تاجر قطنٍ ناجحاً، ثم تنازل عن ثروته ومهنته عام ١٩٦٣ وانضم لجماعة النسّاك عام ١٩٦٥ ... وهكذا.

وقد رحبوا بي جميعاً كأخ في الروح للمجموعة كلها، وخصّصوا لي مغارة قريبة، وعيّن أبونا إرميا لكي يهتم باحتياجاتي، فاصطحبني بلطفٍ إلى مغارتي التي كانت حجرة واحدة مساحتها ٣×٦ أمتار، وارتفاعها نحو متر واحد و٩٠سم (١,٩٠ م)، وتحتوي على سرير من حجر منحوت، عليه فراش سميك، وكرسي خشبي، ومنضدة صغيرة، وصهريج ماء صغير مزوّداً بصنبور وموضوعاً فوق قاعدة حجرية، وبعض الكتب، ومصباح يعمل بغاز الكيروسين (لمبة جاز)، وجهاز طبخ بدائي للطبخ تعلّمت كيف أعمل عليه الشاى بدون دخان كثير.

كانت الحوائط الداخلية كلها والسقف خام، حيث أنها منحوته في طبقة رقيقة من حجر جيري طفلي من صخر صلب. والبلورات الجصيّة على الحوائط الداخلية كلها والسقف تعكس الأشعة وتلمع ببريق مثل الماس داخل المغارة خصوصاً في ضوء الشمعة أو المصباح. والجو داخل المغارة حار باعتدال، ولكنه محتمل وثابت كل الوقت نهاراً وليلاً، ومع ذلك فقد اعتدت سريعاً على حياة المغارة وتمتعت بها كثيراً.

دعانى أبونا إرميا لكى أتسلق السهل الواسع المرتفع الذي يقع فوق منطقة المغائر، وذلك لكى أتآلف مع البيئة المحيطة بى. ذهبنا نحو الشمال، واجتزنا ذلك المرتفع كله في حوالى ساعتين حتى وصلنا إلى أقصاه الذي يطّل على البرية الواسعة التى تمتد حتى شمال الوادي. وهناك جلسنا على قمة عالية لكي نسبح ونمجد الله بينما كنا نلاحظ غروب الشمس. ولم يكن يُرى أي إنسان أو حيوان أو طير على مدى هذه الرحلة. وقد جمعتُ من هذا المرتفع بعض الحجارة النارية المميّزة الحمراء الداكنة، والتى يُعتقد أنها كتل صغيرة من نيازك (شُهب) قد صُهرت ونفخها الهواء وتشكّلت بطريقة غريبة أثناء دخولها المجال الجوي بسرعةٍ هائلة.

وفى يوم آخر ذهبت مع الأب إرميا إلى مغارة قبر قديم داخل قمة تل صخرى شديد الانحدار يقع شرق منطقة المَغائر. وكان مدخل القبر ضيقاً وواطئاً جداً، وكان علينا أن ندخله زاحفَيْن. ولأن الأب إرميا كان يعلم أن القبر تسكنه عائلة من القطط البرية (حيوان الفنكة)، فقد صاح عدة مرات قبل أن ندخل للتأكد من عدم وجود أىّ من أفراد تلك العائلة بالداخل. والقبر يمتد بعمق داخل التل، ولذلك فهو مظلم جداً. وقد استخدمنا بطارية لكى نرى الكتابات القبطية والصلبان المرسومة على الحوائط المبيضة بالجبس. ويُعتقد أن هذا القبر من مخلّفات حياة رهبانية مبكرة كانت تستوطن وادي الريان منذ نحو ١٢٠٠-١٥٠٠ سنة. وبينما كنا خارجين من المغارة رأينا صقراً يحلّق فوقنا وهو يُطلق صرخات تحذيرية لنا لكى نرحل من هذا الموقع حيث يوجد عشّه فوق قمة التل.

كما ذهبت في يوم آخر مع الأب إرميا إلى الحديقة الصغيرة التى أنشأها هؤلاء النسّاك في أسفل الوادي على بُعد نحو كيلومترين جنوب منطقة المغائر. وبداخل الحديقة كان يوجد ينبوع ماء كانوا قد اكتشفوه حديثاً وبعض الأشجار الصغيرة معظمها نخيل. وكانت الحديقة مسوّرة بحُزمٍ من فروع أشجارٍ جافة بشكلٍ دائري لكي تساعد الرياح على إبعاد الرمال التى لو تُركت فهى تتراكم وتكوّن بالتدريج تلاً رملياً يجتاح الحديقة. والمساحة المزروعة في الحديقة كانت نحو مائة متر مربع كانت تنمو فيها أنواع معينة من الخضروات التى تتحمّل المياه المالحة لكي تزوّد جماعة النساك ببعض الخضروات الطازجة.

وفي طريقنا إلى الحديقة وعودتنا منها جمعنا وأكلنا بعضاً من التوت الأحمر البرّي الحلو الذي يُسمى "غردق" الذي كان ينمو بوفرةٍ في الوادي. ويكوّن ثمر الغردق بالإضافة إلى ورق شجره الأخضر الطعام الرئيسى لقطعان الغزال العديدة التى كانت تُرى أحياناً، والتى كان يسميها النسّاك "سواح البرّية"، حيث أنها كانت تعيش حياة نسكية وليس لها مساكن، وكانت لا تستريح إلا قليلاً سواء في النهار أو الليل، فهي ساهرة معظم أيام حياتها، وهكذا فإنهم يشبهون السواح من نواح عديدة..!

وبعد أن تآلفت مع البيئة المحيطة بي، إعتدتُ أن أخرج وحدي لكى أتمتع بوجودي الكامل والفريد أمام الله القدير. ففى تلك البرية النائية القفرة حيث لا يراك ولا يسمعك إنسان، لعله يستولى عليك الشعور بأن الرب هو الوحيد الذي ينبغي أن تثق فيه وتعتمد عليه بالكلية، وأنك أنت مخلوق الله الفريد الذي يمنحك عنايته الكريمة بغزارة، وحينئذ تشعر بالرغبة في تسبيحه وتمجيده بملء الفم وغيرة القلب.

ومع ذلك، فقد كنتُ أُدعى بين حين وآخر، إلى مشاركة النسّاك في حياتهم وأنشطتهم الخارجية، فقد شاركتهم مثلاً في رحلةٍ إلى دير أنبا صموئيل الذي يقع على بُعد نحو ٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي من منطقة المغائر. وكان أفراد الرحلة هم الأب إيليا والأب أليشع وأنا. وكانت خطة الرحلة ومسارها قد درسهما الأب متى المسكين الذي كانت له معرفة كاملة بالمنطقة. وقد وجّهنا هو ألا نقترب من أجزاء معينة من المنطقة تغوص الأرجل في رمل أرضها حتى أن الجمل أيضاً يغوص فيها بعمق.

أعددنا كل شيء للرحلة، وحمّلنا الجحش بخيمة خفيفة

وجرابندية ماء وبعض الطعام الذي أُرسل كهدية لدير أنبا صموئيل. وبدأنا رحلتنا في منتصف الليل تماماً بينما كان القمر سيستمر مضيئاً حتى الصباح. وعند شروق شمس اليوم التالى كنا قد عبرنا وادي الريان في اتجاه جنوب شرقي منطقة المغائر. وبعد أن تناولنا إفطارنا اتخذنا طريقنا نحو الجنوب لمدة نحو ثلاث ساعات ملازمين لسفوح سلسلة التلال الغربية. وفي مكان معين عندما كانت كثبان الرمل في أقل عرضٍ لها، بدأنا نعبر تلك الكثبان التى تضلّل الناس، حيث فقد الكثير من المسافرين والحيوانات حياتهم. وقد رأينا عبر هذا الطريق عدة هياكل عظمية لهذه الضحايا.

وعند الظهر صرنا على قمة أعلى كثيب رملي حيث رأينا جبال القلمون على الجانب الآخر. عندئذ شعرنا بالارتياح، وتوقفنا بعض الوقت لنتناول طعام الغذاء ونشرب الشاي. وعند غروب الشمس وصلنا إلى جبل القلمون الذي يقع بجواره دير أنبا صموئيل. وفى الدير رحب بنا الأب مينا وبقية الرهبان، وقد قضينا هناك يومين ممتعين عُدنا بعدهما سالكين نفس الطريق.

كما أننى اشتركت في رحلة قصيرة إلى عين ماء الريان الجنوبى، التى رتبها الأب موسى، وهو مهندس سابق في بلدية الاسكندرية، ثم صار بعد ذلك هو المتنيح الأنبا أندراوس أسقف دمياط. وهناك قضينا اليوم كله بين مجموعة من النخيل مسبحين وممجدين اسم الرب. وعند الظهر رأينا قافلة من حوالي ٣٠ جمل يسوقها اثنان من البدو وهى تقترب نحو البئر حيث كنا معسكرين. فحيّانا الرجلان وأقاما بالقرب منا، وقد قدّما لنا بعض الخبز الذي خبزاه في الحال في الهواء الطلق، بينما أعطيناهما نحن بعض الطعام المعلّب. وقد جاءت القافلة إلى الوادي لكى تعسكر لمدة أسبوعين لكى تحمي جمالها من مرض منتشر معدٍ.

وقد اعتدتُ أن أمكث عدة ساعات أثناء الليل خارج مغارتى جالساً بمفردي على صخرةٍ تطلُّ على الوادي معجباً بهدوئه الرائع. وفي الليالي المظلمة كانت النجوم تتلألأ أكثر مما رأيتها من قبل على الإطلاق، وفي الليالى القمرية يكون الوادي مغموراً بضوء القمر الفضي، فيبدو كأنه نهر سماوى هائل يجري مزهواً بين شاطئين شاهقين، فتذكرت حينئذ النهر الزجاجي المذكور في سفر الرؤيا، وتصوّرت أن النسّاك الأتقياء الذين يعيشون فوق المنحدر، الذين واجبهم الوحيد ومسرّتهم هما في أن يقدموا التمجيد للعلي، كأنهم هم القديسين المذكورين في هذا السفر ومعهم قيثارات الله في أيديهم مسبحين على الدوام ملك القديسين. وبدأت أرتل وأردّد تلك الآيات ولا سيما الآية الأخيرة: "ورأيت كبحرٍ من زجاج ... والغالبين الوحش .. واقفين على البحر الزجاجى، معهم قيثارات الله، وهم يرتلون ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف قائلين: عظيمة وعجيبة هى أعمالك أيها الرب الإله القادر على كل شئ، عادلة وحقٌّ هي طرقك يا ملك القديسين" (رؤ ١٥: ٢و٣).

كما أننى تعودتُ أن أنهض في نصف الليل وأقف بجوار فراشي في المغارة المظلمة لكى أرفع صلاة وأسبح الرب على كل أفضاله على البشرية، وعادةً أصفق بيديَّ لكي أجعل الترتيلة التى أؤلفها في الحال منسجمة. وفي هذه الصلاة أتصور نفسي واقفاً بين الخوارس الملائكية، واضعاً جميع اهتماماتي الشخصية جانباً. إن الاستنارة التى أنالها من صلاة نصف الليل تفوق جداً على أية صلاةٍ أخرى. وأعتقد أن الاهتمامات اليومية والمشاغل والمعاملات والمناظر تشوّش بالفعل بطريقةٍ ما على اتصال الإنسان المباشر والحرّ بالروح.

شيئاً آخر تمتعتُ به كثيراً في فترة وجودي بالريان هو الاجتماع الأسبوعي لجميع النسّاك في أمسيات السبوت وصباحيات الآحاد. فبعد صلاة رفع بخور العشية يوم السبت كان الأب متى المسكين يلقي كلمته الروحية الأسبوعية التى كانت تستغرق بصفة عامة نحو ثلاث أو أربع ساعات. وفي هذه الكلمة كان يبسّط أكثر الأسرار الإلهية تعقيداً ويجعلها في مستوى إدراك سامعيه. كما أنه كان يُشخص بدقة الضعفات البشرية ونقائصها وعللها ويفهمها مهما بدت غامضة أو مستترة، وقد أُعطى نعمةً للتعامل مع مثل هذه الضعفات ولكي يقود نفوس تلاميذه خطوةً خطوة إلى مستوى أفضل من الإيمان والاستنارة. إنه في الحقيقة واحد من أكثر الملاّحين السماويين سمواً ومقدرة جذابة في جيلنا. وهو قادر على الدوام على اجتذاب تلاميذ جددٍ وإعادة صياغة حياتهم من جديد. وتلاميذه في الوقت الحاضر هم عشرات الألوف منهم النسّاك والرهبان والأساقفة والكهنة والشمامسة المكرسين وأصحاب المهن، رجالاً ونساءً من جميع الأعمار. وجميعهم يتبعون مشوراته وتعاليمه التوجيهية سواء بالاتصال الشخصي أو بالرسائل أو الدراسات البنائية الملهمة أو النبذات أو المقالات التى تُنشر في مجلة "مرقس".

بعد القداس الإلهى كل يوم أحد يعدّ النسّاك وجبة طعام مشتركة يشترك فيها جميع النسّاك والزوّار. وأثناء الطعام يقرأ أحد الرهبان في كتاب "بستان الرهبان"، وهكذا يُقدّم نوعان من الطعام: روحي وجسدي، مستزامنين، لتغذية الروح والجسد بالاحتياجات الخاصة بكل منهما.

وما تأثرت به حقاً أكثر من أي شيء آخر هو المحبة المتبادلة التى كانت تسود على مجمع الشركة الصغير هذا، فكل عضو فيه له رباط وثيق برفيقه بألفة المحبة الصادقة. وكانوا جميعاً يكنّون توقيراً وثقةً كاملةً في مرشدهم الأب متى المسكين الذي كانوا جميعاً يسمونه "أبونا" بدون ذكر اسمه. وتشبه وحدتهم بالمحبة والرأي والروح ما كانت عليه الكنيسة الأولى عندما كان كل واحد يضحي بذاته وممتلكاته لأجل الفائدة العامة للجماعة كلها. والحياة وسط مثل تلك الجماعة هى بركة حقيقية حيث لا تعود تشعر أنك في صحراء قفرة جدباء، بل في وادٍ غنى ممتلئ بفيضٍ روحانى.